على عزت بيجوفيتش
(الحلقة الأخيرة)

لقاءاته الصحفية وتصريحاته:

عندما يتحدث البعض عن قدوم المنقذ الأمريكي لتخليصنا من طغيان الأنظمة السياسية واستبدادها ولنشر الديمقراطية ونور الحضارة، فيجب أن نتوقف قليلاً لفحص قدر الصدق في هذه الرسالة، فلا شك أننا في أمس الحاجة إلى الديمقراطية والعدل ونور الحضارة، ولكن هل هذه بضاعة قابلة للتصدير؟ وهل تصدرها لنا أمريكا بلا مقابل؟ وهل أوفت أمريكا بوعودها لأي شعب مسلم؟ .. على مثل هذه الأسئلة يجيب على عزت بيجوفيتش في مذكراته ويشرح لنا تجربته مع أمريكا والدول الأوروبية فيما يتعلق بتنفيذ اتفاقية دايتون للسلام، فقد نشطت هذه الدول في تنفيذ الشق العسكري والسياسي الذي يضمن وقف الحرب وتأمين وجود القوات الأجنبية والإدارة الأجنبية على أرض البوسنة، أما الشق المدني من الاتفاقية الذي يشتمل على إعادة إعمار البوسنة وإعادة اللاجئين إلى ديارهم وتسليم مجرمي الحرب إلى المحكمة الدولية الخاصة بذلك في لاهاي، كل ذلك لم يتحقق منه إلا القليل.

فبعد ثمانية أعوام لم يعد من المسلمين إلى ديارهم إلا 2% فقط بينما عاد كل اللاجئين الصرب والكروات إلى المناطق التي يسيطر عليها المسلمون، ولا تزال القوات الدولية تماطل في إلقاء القبض على أكبر المجرمين المسئولين عن التطهير العرقي في البوسنة وعلى رأسهم رادوفان كراجيتش وقرينه الجنرال ملاديتش، وما نسمع عنه أو نراه على شاشة الفضائيات العالمية من وقت لآخر عن المطاردات وتفتيش أماكن يشتبه في وجودهما بها ليس إلا سيناريوهات تضليل للرأي العام العالمي، ذلك لأن هناك موقفاً أوروبياً ثابتاً في هذه القضية، ومن يتشكك في هذا عليه بالإطلاع على مذكرات ريتشارد هولبروك المفاوض الأمريكي صانع اتفاقية دايتون في كتابه (لإنهاء حرب) To End a war الصادر سنة 1998، أما إعادة إعمار البوسنة فلم يتحقق، ولعل هذا كان هو السبب الرئيسي في استقالة الرئيس على عزت بيجوفيتش من منصبه فقد كانت الإشارات تصله واضحة بأنه ما دام هو في قيادة شعب البوسنة فلن يكون هناك إعمار، وكان التحريض الأجنبي للمعارضة الشيوعية والعلمانية وحملات الهجوم والافتراءات على حكومة عزت بيجوفيتش وحزبه تتم بتنسيق مفضوح بين الأجنبي وبين القوى المحلية الطامحة إلى السلطة، ولأنهم وضعوا قضية إعادة إعمار البوسنة ومصالحها في كفة ووجود عزت بيجوفيتش في الحكم في الكفة الأخرى آثر

الرجل مصالح بلاده وضحى بالسلطة، وحمد الله أنه تخفف من مسئولية أرهقته وتركت بصماتها قاسية على قلبه وصحته وحياته.

تجربته مع الأجنبي:

لقد استجاب عزت بيجوفيتش لجهود السلام الأمريكية لكي يضع حداً لنزيف الدم الذي تعرض له شعبه، وقبل بوجود قوات أجنبية على أرض بلاده كضرورة لا بديل عنها، وكان كارهاً لذلك أشد الكراهية، وفي هذا يقول: **(كثيراً ما حدثت نفسي .. وصرحت في مناسبات عديدة أنني رغبت في شئ وكرهته في نفس الوقت ألا وهو وجود قوات أجنبية في البوسنة .. فالأجانب يساعدونك في أول الأمر ثم يتحولون إلى قوة مسيطرة مستبدة .. وهم في هذا ينفذون برامجهم وما يتفق مع مصالحهم وأهوائهم، ويضربون عرض الحائط بمصالحك ولا يقيمون وزناً للمواثيق والوعود التي قطعوها على أنفسهم .. وتلك تجربة على عزت بيجوفتيش لعلنا نستخلص منها درساً أو عبرة.**

أعود إلى الخط العام في تقديم مذكرات صاحب السيرة لنكتشف أبعاداً أخرى من شخصيته المتعددة المواهب .. وسوف نجد – بهذا الصدد – في لقاءاته الصحفية وفي تصريحاته أمام المحافل الدولية ثروة فكرية وجرأة نادرة في الحق .. وهي جرأة مقرونة بالحكمة والفهم العميق للقوى والأفكار التي تحرك هذا العالم.

مع عبد الله سيدران:

نبدأ بسلسلة من اللقاءات معه .. أجراها صحفي شاعر وكاتب سيناريو مرموق في البوسنة هو عبد الله سيدران .. نُشرت حلقات هذه السلسلة في مجلة (سراييفو سلوبودنا بوسناً) في ثلاثة أعداد بتواريخ 11 و25 أغسطس و8 سبتمبر 1996م.

سأله في البداية عن أصوله الأولى وما قيل عن انتسابهم إلى بلجراد وفيم كانت هجرتهم منها وإلى أين؟..

وقد أكد عزت بيجوفيتش أن بلجراد بالفعل كانت هي موطن أجداده الأول وقد استقروا فيها حتى سنة 1868م، عندما ثار الصرب ضد القوات العثمانية واستولوا على بلجراد لينكلوا بالمسلمين ويطردهم منها، فتشتتوا في الآفاق، وتوجهت مجموعة اللاجئين الذين رافقوا أجداد عزت بيجوفيتش إلى موقع للإيواء في شمال شرق البوسنة .. كان مجرد موقع مؤقت للإيواء في أرض منحها لهم السلطان العثماني عبد العزيز، تحول إلى بلدة معمورة باسم (العزيزية)، ثم تغير الاسم بعد ذلك إلى (ساماتشر)، ولهذه البلدة قصة مثيرة في حياة عزت بيجوفيتش يقول فيها: **(... بعد مقتل فرديناد ولى عهد النمسا في سراييفو سنة 1914 على يد إرهابي صربي أخذ النمساويون عدداً كبيراً من الصرب من مختلف المدن البوسنوية رهائن فيما عدا (ساماتش)، ذلك لأن جدي – وكان عمدة للبلدة – رفض تسليم أربعين شاباً صربياً إلى**

السلطات النمساوية ووضعهم في حمايته، وكان لهذه الوقفة الإنسانية الشجاعة من جدي أثر في إنقاذ حياتي بعد ثلاثين سنة، ففي سنة 1944 اختطفتني عصابة الشتنك الإرهابية (وهم من القوميين الصرب) وكانت تنوي قتلي .. ولكن جاءت مجموعة من الصرب للتدخل والحيلولة دون ذلك حيث قصوا على الكولونيل (كيزيروفتيش) قائد الشتنك قصة جدي الذي قام بحماية النمساوية سنة 1914م .. وحثوه على أن يقوم هو أيضاً برد الجميل .. والحمد لله خرجت من المعتقل هذه المرة ورأسي فوق كتفي).

قراءاته:

سأله سيدران عن قراءاته في السجن وعن اهتماماته الأدبية والفلسفية؟

فقال: **(كان من حسن حظي أو من سوئه – لا أدري – أنني قرأت كثيراً جداً .. وقد تبين لي فيما بعد أن كثيراً مما قرأته من كتب الفلسفة كان عديم القيمة أو كان يمكن الاستغناء عنه بتعلم لغة أجنبية فذلك أجدى (مثلاً) من قراءة كتب الفلسفة الهندية ..).**

البشناق والبوسنة:

وفيما يتعلق بالإعلام قال سيدران: **حزنت لأنك يا سيدي الرئيس وافقت على إنشاء محطة تليفزيونية جديدة خاصة بالبوشناق (وهو الاسم التاريخي لمسلمي البوسنة) ..**
وسألت نفسي: **هل هذا في صالح البوسنة أم اتجاه يمكن أن يؤدي إلى تمزيقها؟..**

عزت بيجوفيتش: تخطئ إذا وضعت البوشناق والبوسنة على طرفي نقيض وأن تعتقد أن أي زيادة في طرف تؤدي بالضرورة إلى نقص في الطرف الآخر!..

هناك أناس يعتقدون أن إضعاف البشناق يؤدي إلى بوسنة أقوى .. وهذا غير صحيح .. فبوسنة قوية موحدة وديمقراطية لا يستلزم شيئاً من ذلك، هؤلاء الناس يرون أنه من الأفضل أن ينسى البشناق عقيدتهم وماضيهم وحتى أسماءهم ففي هذا تقوية للبوسنة .. وهو غير صحيح أيضاً وإنما العكس هو الصحيح: إن شعباً من البشناق الأقوياء الواعين هو العمود الفقري لدولة البوسنة والهرسك .. وهو الضمان الأساسي لإنقاذ البوسنة في مواجهة الأطماع التوسعية من الدولتين المجاورتين الشرقية (صربيا) والغربية (كرواتيا) .. وهو الذي سيأخذ البوسنة والهرسك تدريجياً في طريق الوحدة .. البشناق هم الضمان أن الستار لن يسقط على دولة البوسنة ..

سيدران يعترض على شعار حزب العمل الديمقراطي الذي يقول: (في عقيدتنا وعلى أرضنا) ويرى أن هذا الشعار يتناقض مع فكرة البوسنة الموحدة متعددة الأعراض – ثم يسأل:

أريد تعليقك على هذا .. كيف تنسجم الوحدة مع الحديث عن (الدين والأرض) كما في شعار الحزب.

عزت بيجوفيتش: آسف أنك تبدأ من افتراض خاطئ .. فأنت تفترض أن حزبنا هو البوسنة بينما الحقيقة أنه أحد الأحزاب البوسنوية وإن كانت تركيبته بوشناقية .. ونحن لا نخفي هذه الحقيقة .. ولكننا نؤمن أن سنوات من العمل المشترك بين البشناق والعناصر الوطنية الأخرى من صرب البوسنة وكرواتيا سوف تنبثق الوطنية البسنوية بمجموعة من القيم المشتركة تكون أساساً للوحدة.

✍ مستقبل البوسنة رؤية وواقع:

سيدران: سيدي الرئيس .. أرجو أن تتحدث عن شخصية على عزت بيجوفيتش التاريخية وأعماله .. هل تتذكر مقولتي أن عزت بيجوفيتش سيكون شيئاً إذا نجا البوشناق وبقيت البوسنة وسيكون شيئاً آخر إذا اختفيا من وجه الأرض!..

عزت بيجوفيتش: لا أحب أن أتحدث عن شخصية على عزت بيجوفيتش وأعماله ولكني أحب أن أتحدث عن البوسنة ومستقبلها .. وفي هذا أقول لك باطمئنان (إنني أعتقد أن فكرة البوسنة ستفوز وتبقى .. أؤمن بذلك لأسباب ثلاثة:

1- أن قوة الشعب البشناقي وقوة البوسنة في نمو مطرد.
2- أن صربيا ستبقى في حالة ضعف واضطراب لفترة طويلة.
3- التحول الديمقراطي بكرواتيا يتقدم بخطى ثابتة ومعنى هذا أن الدولتين القويتين المجاورتين الطامعتين في التوسع بالبوسنة لن يكون لها أثر فعال، ومن ثم لن تستطيع صربيا تدمير البوسنة ولن تريد كرواتيا تدميرها..

بكلام آخر أقول: إن نمو قوتنا الداخلية في إطار صربيا ضعيفة وكرواتيا ديمقراطية من الخارج هي رؤيتي وتصوري التاريخي الذي أراه يتحقق أمامي في هذه المنطقة .. في هذا الوضع التاريخي سوف تبقى البوسنة وسوف تؤكد نفسها تدريجياً كدولة ديمقراطية موحدة.

سيدران: ماذا عن رؤيتك للبوسنة سنة **2030**م؟..

عزت بيجوفيتش: كيف يتسنى لي معرفة ماذا سيحدث بعد ثلاثين أو أربعين سنة قادمة .. ولكن البعض يؤكد أن تغييرات هائلة ستحدث في العالم .. وأعتقد أن أوروبا ستكون مقاطعة واحدة وأن الشرق الأقصى سيكون مركز العالم .. وأن أمريكا ستفقد سيطرتها على العالم بسبب سقوطها الأخلاقي .. وهذا هو السياق العالمي الذي ستعيش فيه البوسنة .. ولكني لا أعتقد أن التأثير القادم من بعيد سيكون على مستوى التأثير المباشر لجاريها

الصربي والكرواتي .. كما أعتقد جازماً أن كرواتيا خلال خمس عشرة سنة ستصنع من نفسها دولة ديمقراطية حديثة بينما ستبقى صربيا ضعيفة لزمن طويل، وفي هذا المناخ ستجد البوسنة فرصتها في البقاء والنمو كما سبق أن أشرت.

الإسلام والأصولية:

في محاضرة ألقاها عزت بيجوفيتش أمام الجمعية الألمانية للشئون الخارجية في بون بتاريخ **17** مارس **1995**م فقرات لفتت نظري بشدة يقول فيها: (أحب أن ألفت النظر إلى حقيقة وجود قوى فاشية على جانبي البوسنة (في صربيا من اليمين وفي كرواتيا من اليسار) وهؤلاء جميعاً يفخرون بتبني مفاهيم قومية ضيقة (دين واحد وحزب واحد) .. وتهب علينا من الجانبين رياح تريد أن تطفئ هذه الشعلة الصغيرة التي أضأناها في أرض البوسنة التي تحررت، والجميع يهاجمون ما يضفونه بأنه (أصولية إسلامية)، ويزعمون أنهم يقومون بدور الدفاع عن أوروبا من الخطر الإسلامي .. ولعل هذه فرصة مناسبة من حيث المكان والزمان لإلقاء الضوء على ما يسمونه بالأصولية الإسلامية في البوسنة .. غير أني أود أولاً أن أنبه إلى حقيقة هامة وهي أنه لا ينبغي لكم أن تسمحوا لهؤلاء الناس بالدفاع عنكم حتى لو كان هذا متعلقاً بالأصولية الإسلامية .. فأنا لا أظن أن أوروبا قد انحطت إلى درجة أن تتوقع من الذين دمروا الأماكن المقدسة والآثار الثقافية والتاريخية .. أن يقوموا بحماية أوروبا من أي شئ..

نعم يوجد في البوسنة إسلام ولكن ليس فيها أصولية، فإذا كان هناك من لا يستطيع أن يفرق بين الإسلام والأصولية فتلك مشكلته الإدراكية .. لقد استيقظ الدين – بعد خمسين عاماً من القمع الشيوعي – في نفوس الناس، وهذه العملية جزء من اليقظة الوطنية للشعب البوشناقي وسوف تستمر .. ولكن الإحياء الديني في البوسنة لن يكون متطرفاً راديكاليا لأنه إحياء طبيعي وحر. وقد أدى دوراً إيجابياً في أنسنة صراعنا في سبيل الحرية، فالدين يؤكد الفرق بين الخير والشر .. بين ما هو حلال ومباح وبين ما هو حرام .. وكان كل ما حل بنا من ظلم ودمار يدفعنا لانتقام لا ضابط له ولكننا بحمد الله لم نتورط في غواية الانتقام، بل انتصرنا عليها بفضل استمساكنا بعقيدتنا الدينية .. فهل هذه أصولية!؟ ..

هذا التضليل الذي يخلط بين الإيمان وبين الأصولية لا يزال معلقاً في هواء البوسنة بفضل الصمت والقبول المتبادل بين المعتدى والغرب، فالمصلحة واحدة وإن اختلفت الأسباب، أما مصلحة المعتدى الصربي فهي أن يحول بين الغرب وبين أن يقوم بواجبه في مساعدة البوسنة باستخدام خدعة الأصولية الإسلامية، ومصلحة الغرب هي أنه وجد مبرراً لسلبيته

ونكوصه عن القيام بواجبه الإنساني نحو البوسنة المعتدى عليها .. في هذا المقام ضرب عزت بيجوفيتش مثالين أجتزئ بواحد منهما له دلالة خاصة قال:

نشب خلاف في سوق سراييفو حول أماكن بيع لحم الخنزير وضرورة فصلها عن أماكن بيع اللحوم الأخرى (الحلال)، وطار الخبر إلى الصحافة الغربية فاستشاطت غضباً وأفاضت في خطورة هذا التوجه من جانب المسلمين وظلت تضخ التحقيقات والتصريحات لعدة أيام وتضخمت قصة الخنازير وأخذت من الاهتمام أكثر بكثير مما أخذته من قبل معسكرات الإبادة الصربية التي اختفى فيها آلاف الناس الأبرياء ولم يبق منهم خلف الأسوار الشائكة سوى هياكل عظمية .. فهل هذا معقول؟!..

✍ مسلم وأوروبي:

في آخر المحاضرة قال علي عزت بيجوفيتش: **(اسمحوا لي في نهاية هذه المحاضرة ببعض ملاحظات شخصية .. لقد جئت هنا بصفة وظيفتي الرسمية كرئيس لجمهورية البوسنة .. ولكن لماذا لا أقولها بصراحة أنني أيضاً جئت كمسلم من البوسنة فأنا أشعر أنني مسلم قدر شعوري بأنني أوروبي، ولا أظن أن أحدهما يستبعد الآخر .. وأنا لا أرى وجود اختلافات بين الناس أو بين الحضارات مما لا يمكن معه التواصل والتوافق، فإذا كانت كل حضارة هي بصفة أولية مجموعة من القيم .. في التحليل النهائي قيم أخلاقية يعتنقها أصحاب حضارة ما، إذن في مقدورنا أن نتحدث عن إمكانية وحدة الحضارات .. هذه القضية بالنسبة لي هي قضية المساواة الإنسانية .. وفي القرآن آية تقول:** [تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ].

والدعوة هنا موجهة إلى اليهود والنصارى ولذلك أدعوكم أن تسقطوا دعوى إقامة الحواجز الصناعية (أو العدائية) بين المسيحية والإسلام .. بين الشرق والغرب .. ثم دققوا النظر لكي تروا تلك التعصبات الكامنة وراء الأنانية والظلم الغربيين .. أكثر من هذا سوف تدركون أن كثيراً من الاختلافات التي ترونها وتستشعرون فداحتها ليست اختلافات جوهرية، وإنما هي وليدة اختلافات في المستوى الثقافي والنمو الاجتماعي .. إنني مسلم أوروبي وأشعر بارتياح كامل إزاء هذه الحقيقة) ..

✍ ما أنا إلا رئيس انتخبه الشعب:

في مقابلة مع صحفي من مجلة (داني) الأسبوعية الصادرة في سراييفو بتاريخ 11 ديسمبر 1994، كانت الحرب في البوسنة على أشدها وقد بدأ كفة قوات المسلمين تُرجح، إذ استطاعت أن تقتحم معاقل الصرب وتحقق انتصارات ملحوظة وتحرر كثيراً من أراضي البوسنة .. هذه الانتصارات لم يكن أحد يتوقعها من المراقبين الدوليين بل بدت وكأنها معجزات.

سأل الصحفي: سيدي الرئيس .. قيادتك العبقرية للشعب البشناقي لا جدال فيها فلست رئيساً لحزب ولا رئيساً للجمهورية فقط ولكنك أصبحت رمزاً للشعب البشناقي .. ومع ذلك أغامر وأسألك: ماذا بعد على عزت بيجوفيتش؟ .. إنني أسألك هذا السؤال وأنا أعلم أن لك محبين كثر كما أنك لك كارهون، ولكنهم جميعاً مجمعون على أنك تمثل أحد العوامل الحاسمة في الدفاع عن الشعب البشناقي والحفاظ عليه.

عزت بيجوفيتش: أظن أنك تبالغ كثيراً فأنا مجرد رئيس اختاره الشعب في انتخاب حر .. وأعرف بالضبط ما يعنيه هذا الاختيار ومسئولياته .. إنني أشعر من كلامك بالإطراء ولكن هناك ما يبرر شعوري بالحزن وربما الغضب أيضاً .. فأنا أخالفك في فكرة أنني على هذا القدر من الأهمية بالنسبة للدفاع عن الشعب البشناقي .. وأحمد الله أن هذا غير صحيح.. لقد خرج الناس بالآلاف يقاتلون ويدافعون عن وطنهم ضد العدوان .. نعم لقد جعلت ذلك عليهم أيسر، ولكنهم كان في استطاعتهم أن يحاربوا بدوني وسوف يستمرون في القتال من بعدي .. لقد كنت دائماً متأكداً من هذا في أكتوبر سنة **1992** .. وكانت هذه أول مرة ذهبت أطوف فيها بالبوسنة كلها وكانت الحرب مشتعلة في كل مكان .. وكنت أكرر هذه الجولة من وقت لآخر .. لقد استطاع المقاتلون البشناق في (جراداكاتش) أن يهزموا أعدائهم في نوفمبر **1992** ويحرروها، فماذا فعلت لهم؟ القليل .. أما هم فقد قاموا وحدهم بالتخطيط والدفاع وانتصروا .. وكذلك بالنسبة لإعادة بناء صناعتنا العسكرية .. كانت كلها بجهود ومبادرات عبقرية من قبل مجموعات محلية وبدون كثير من مساعدة .. كنا نقوم بالتنظيم والتشجيع وقليل جداً من المساعدات.

✍ بين الحرية والتطرف:

تحدث الصحفي عن الاتهامات الموجهة إلى حزب العمل الديمقراطي (أي حزب عزت بيجوفيتش) وكيف أن البريطانيين يدعون إلى تصفيته على أساس أنه حزب قومي متطرف شأنه في هذا شأن الحزبين الآخرين: حزب الصرب وحزب الكروات .. وكان رد عزت بيجوفيتش موجزاً بليغاً قال: (لم يكن في حزب العمل الديمقراطي تطرف ولن يكون ما دام ظل الإسلام حراً في البوسنة .. أما إذا لاحظت حالات فردية من التطرف فهذا أمر عادي يحدث في كل بلاد الدنيا).

قال الصحفي معقباً: إذن بماذا تفسر زيادة عدد الوهابيين (السلفيين) وأولئك الذين يؤيدون طالبان علناً!؟..

عزت بيجوفيتش: فهمي للإسلام واضح ومعروف وهو مختلف عن فهم هؤلاء الناس، فأنا لا أعتقد أن المرأة يجب عليها أن تغطي وجهها بل إنني أعارض هذا .. وقد زرت

الحرم المكي فلم أشاهد امرأة تغطي وجهها إلا نادراً، فلماذا تغطى المرأة وجهها في سراييفو؟..

... إنني لا أعرف أن في البوسنة كثيراً من الوهابيين .. وما داموا لا يستخدمون وسائل غير قانونية فهم أحرار في بلاد حرة.

ثم وجه الكلام إليه شخصياً قال: (إذا كانت يا سيد (بتشانين) تقول وتكتب وتعارض كما تشاء، فلماذا لا يفعلون هم أيضاً بنفس الحرية؟

هذه الآراء تصبح موضع اهتمام السلطات فقط عندما يبدأ أصحابها يفرضون آراءهم بالقوة واستخدام العنف).

التحول المذهل:

في لقطة واحدة قصيرة يُطوى تاريخ البوسنة في مائة عام حتى اللحظة الراهنة حيث وقع الانقلاب الأخير .. يقول عزت بيجوفيتش: (خلال مائة عام تحت أنظمة أوروبية عانينا بسبب إسلامنا، وكان التدمير المنظم موجهاً نحو هويتنا، حتى لم يبق منها إلا بقايا وأطلال، إلا أننا بعد نشوب هذه الحرب استعدنا هويتنا وعدنا إلى جذورنا الإسلامية الأولى، لذلك لم يعد هناك سبب ولا يحق لنا أن ننظر إلى المستقبل بيأس .. لعل العدوان الغاشم الذي وقع علينا كان عقوبة إلهية لتفريطنا في جنب الله .. ولكننا جاهدنا جهاداً كبيراً لاستخلاص حريتنا وقد كافأنا الله بالنصر .. إننا اليوم نؤمن أن الأمم القوية وحدها هي التي تُصاب بمحن كبيرة .. وهي وحدها التي تعتصم بمبادئ الأخلاق، والإخلاص لهويتها، وتظل مع ذلك مفتوحة على العالم في أحلك الظروف .. وهذا ما أتمناه لشعبي وللمسلمين في هذا العالم.

الإسلام والحضارة الغربية:

وفي حديثه عن العلاقة بين الإسلام والحضارة الغربية يقول: (يواجه المسلمون اختياراً صعباً ينبغي عليهم أن يتجنبوا فيه اختيار أحد طرفين متعارضين: الرفض التام للحضارة الغربية أو إتباعها إتباعاً أعمى فكلاهما خطر على نفس المستوى، ذلك لأننا إذا لم نتعاون بإيجابية فإن ضعفنا سوف يمتد إلى ما لا نهاية، وإذا قبلنا هذه الحضارة بلا تمييز بين ما فيها من خير وشر فسوف نخسر هويتنا .. نحن لا نستطيع أن ننعزل ونقطع أنفسنا عن العالم، ويجب علينا أن نهتدي في هذا بقول نبينا الكريم: (الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها).

كما يجب أن نعى حقيقتين ربما يغيبان عن أذهاننا: الحقيقة الأولى هي أن هذه الحضارة هي نتاج مشاركة عالمية لعدد كبير من العلماء ينتمون إلى قوميات وأديان مختلفة، والثانية هي أن قوة الغرب ليست في اقتصاده وقوته العسكرية فحسب، فهذا هو الجانب

الخارجي منها، ولكن القوة الحقيقة للغرب تكمن في النقد الفكري، وهذا ما ينبغي أن نفهمه وأن نمارسه في حياتنا.

ويحذر عزت بيجوفيتش مما سماه بالتقليد الطفولي للمظهر الخارجي للحضارة الغربية لأن هذا المظهر يحمل في طياته بطانة ثقافية غير مشهودة، ولكنها ممزوجة بكراهية عميقة واحتقار شديد للإسلام والمسلمين موروث من زمن الحروب الصليبية .. وهذا ما يفسر لنا كيف أن أبناءنا عندما يحتكون بهذه الحضارة وينبهرون بها يشعرون بعقدة النقص تجاهها، ويتشربون روح العداء للإسلام وقيمه وتاريخه ومن ثم ينشأ عندنا ذلك الصراع الأزلي بين دعاة الحداثة والتبعية للغرب وبين المحافظين المتصلبين على التقاليد .. وقد مزق هذا الصراع كثيراً من المجتمعات المسلمة وأدى إلى نتائج كارثية.

فكرتان جديدتان في أوروبا:

يلفت عزت بيجوفيتش أنظارنا إلى فكرتين كبيرتين تترددان في الثقافة الأوروبية المعاصرة ويدعونا إلى أن نتأمل فيهما بعناية شديدة، تتعلق الفكرة الأولى **بما يسمى (المجتمع المفتوح) كما تحدث عنه كارل بوبر في كتاب له بهذا العنوان وجعل من أهم أركانه: حرية الفرد وحرية الفكر والنمو الشخصي، وحق الإنسان في نقد المؤسسات السياسية والتبادل الحر للأفكار،** يقول عزت بيجوفيتش: **(لست أجد في مبادئ الإسلام وقيمه ما يحول بين المسلمين وبين الاشتراك في تنمية المجتمع المفتوح بهذا المعنى، على الأخص أن آراء بوبر تحث على التسامح وعلى محاربة التوجهات البربرية في أوروبا والتي طالما وُجهت ضد المسلمين في هذه القارة.**

أما الفكرة الثانية **فيُطلق عليها اسم (النهضة الأوروبية الثانية) كما يدعو إليها الفيلسوف الألماني (وايتساكر) Weizsacker وتختلف هذه الفكرة عن النهضة الأوروبية الأولى التي حصرت مصادرها في الحضارتين الأوروبيتين اليونانية والرومانية في أنها تتوجه إلى عوالم وثقافات خارج أوروبا، هذا التحول الجديد نحو الخارج يجعل للفكر الإسلامي موضعاً محتملاً في إطار الاهتمام الأوروبي، ولذلك فنحن مدعوون للقيام بجهد إيجابي مخلص في تقديم الإسلام وتقريبه من الاهتمام والمزاج الأوروبيين، وفي هذا المجال يسوق عزت بيجوفيتش الآية القرآنية:** [وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ].

ويعلق على هذه الآية بقوله: (نحن لا نستطيع أن نستبق الخيرات إلا عندما نقوى هويتنا ويزداد وعينا بها .. فالمسلمون الواعون وحدهم هم القادرون على الأخذ والعطاء (والحوار) دون أن يلقوا بقيمهم الإسلامية وراء ظهورهم.

مسلم وأوروبي:

في لقاء صحفي مع مندوب صحيفة (شتيرن) الألمانية بتاريخ 5 نوفمبر 1994م سـأله قـائلاً: السيد الرئيس أنت معروف كمسلم حريص على التقاليد الأوروبية والتسامح الأوروبي وأنك منفتح على العالم بأسره، ولكن هناك تقارير صحفية تزعم أن هناك أسلمة جارية في البوسنة والهرسك فهل هذه مجرد شائعات؟...

أنظر إلى إجابة الرجل الذي يفهم العقلية الأوروبية وكيف يخاطبها لا بلغة الاعتذار والتبرير المهين وإنما بمنطق المواجهة الحكيمة قال:

(سوف أكون شديد الصراحة وأقول لك: **لا ليست هذه شائعات بل حقيقة – وتفسيرها أن العودة إلى الدين أصبحت ظاهرة عالمية في كل مكان قمع فيه الشيوعيون الدين على مدى خمسين إلى سبعين سنة .. نعم هناك أسلمة في البوسنة – على حد وصفك– وهي صحوة إسلامية، بقدر ما فيها صحوة أرثوذكسية وكاثوليكية، ولكن الفرق هو أن عودة المسيحيين إلى دينهم لم تلفت انتباه أوروبا المسيحية وهو أمر أفهمه ولا ألومها عليه، أما عودة المسلمين إلى دينهم فقد اعتبرته أمراً مفزعاً .. أود فقط أن أصحح في نقطة واحدة وهي أن تسامحي ليس مرده إلى أنني أوروبي وإنما مصدره الأصلي هو الإسلام، فإذا كنت متسامحاً حقاً فذلك لأنني أولاً وقبل كل شئ مسلم ثم بعد ذلك لأنني أوروبي .. لقد لاحظت خلال حرب البوسنة أن أوروبا تسيطر عليها ضلالات وأوهام لا تستطيع التحرر منها رغم الحقائق الدامغة، فقد دُمرت في هذه الحرب مئات المساجد والكنائس .. كلها – بلا استثناء – دمرها مسيحيون، ولا توجد حالة واحدة لكنيسة دمرها البشناق (المسلمون)** .. أسوق إليك حقيقة تاريخية أخرى: **فقد حكم الأتراك العثمانيون البلقان خمسمائة سنة فلم يهدموا كنيسة ولم يبيدوا شعباً، بل حافظوا على الأديرة والشهيرة في جبال فروشكا جوراً (قريباً من بلجراد) لأن إسلامهم يأمرهم بهذا، ولكن هذه الآثار الدينية التاريخية لم تصمد ثلاثة أعوام فقط تحت الحكم الأوروبي .. فقد دمرها الشيوعيون والفاشيون خلال الحرب العالمية الثانية، وهؤلاء لم يكونوا نتاجاً آسيوياً بل صناعة أوروبية.. وحتى هذه اللحظة لم تظهر أوروبا حساسية ضد الفاشية المتصاعدة في البلقان ووقفت تتفرج على الخراب الذي أحدثه الصرب في البوسنة .. إنني أعتز بأوروبا وأكن لها كل تقدير ولكن أوروبا تحمل عن نفسها فكرة أعلى بكثير من حقيقتها!.**

♦♦ انتهت المذكرات ♦♦

محمد يوسف عدس
مستشار سابق بهيئة
اليونسكو
لندن